

## السمة العلاجية للأرثوذكسية

### الميتروبوليت ييروتثيوس فلاخوس

#### نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

أنا مفتبب بهذا الاجتماع مع قداسة البطريرك المسكوني برثلماوس، وزملائي المتحدثين المتميزين الكرام، والمشاهدين الأعزاء اليوم، يوم أحد الأرثوذكسية، وأود أن أعتنم هذه الفرصة للصلاة لإله آبائنا أن يباركنا ويبقينا في الكنيسة الأرثوذكسية.

هذا مهم، لأن الأرثوذكسية ليست عقيدة مجردة، بل هي حياة المسيح التي تُعاش في الكنيسة. الأرثوذكسية هي المجد الحقيقي للكنيسة وإيمانها، لذلك ترتبط الأرثوذكسية ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة والإفخارستيا الإلهية. اقترح علي المنظمون التحدث عن موضوع "السمة العلاجية للأرثوذكسية"، وقد سُررت بقبول ذلك، لأنني أعلم أنه ضمن الكنيسة الأرثوذكسية، نحن نُشفى على يد طبيب النفوس والأجساد الحقيقي، أي المسيح، وهذا يتم عبر الأسرار والنسك المسيحي، من خلال اللاهوت وتقليد اليقظة الروحية الهدوئي.

يتضح هذا من حقيقة أن الآباء قرروا أن نحتفل اليوم برفع الأيقونات المقدسة، ما هو بعبارة أخرى "لاهوت الأيقونات المقدسة"، ومن حقيقة أننا نحتفل يوم الأحد المقبل، كاستمرارٍ لاحتفال اليوم، بالقديس غريغوريوس بالاماس، الذي علّم عن الاشتراك في نعمة الله غير المخلوقة وعن الهدوئية المقدسة. في التحليل الأخير، ليس شفاء البشر شيئاً نفسياً أو دينياً، بل هو لاهوتي بشكل لا نزاع فيه. إنه تحول قوى النفس، بحيث تتطور من التصرف على عكس الطبيعة إلى التصرف بحسب الطبيعة وفوق الطبيعة. يتحقق ذلك من خلال أسرار الكنيسة مدموجة مع النسك المسيحي. إنه تقدم الإنسان من صورة الله إلى شبهه، بحيث تتحول محبة الذات إلى محبة لله وللناس الآخرين.

لقد فضلت هذا في العديد من الكتب والأحاديث، لكنني اليوم سأعبر عنه من خلال "سينوذيكون الأرثوذكسية" الذي يُقرأ يوم أحد الأرثوذكسية في الكنيسة، كله أو أجزاء منه، والذي يوضح من ناحية أن الأرثوذكسية هي المسيح الحي، بينما يظهر من ناحية أخرى أن العلاج هو الإنسان حياً في المسيح.

#### ١. "سينوذيكون الأرثوذكسية"

ينقسم "سينوذيكون الأرثوذكسية" إلى قسمين كبيرين. يضم الأول قرارات المجمع المسكوني السابع (٧٨٧)، التي أُرست لاهوت الأيقونات المقدسة وحددت السياق اللاهوتي الكامل الذي ينبغي أن يكرم فيه المسيحيون الأيقونة. أما القسم الثاني فيضم بعضاً من قرارات المجمع المسكوني التاسع (١٣٥١) في زمن القديس غريغوريوس بالاماس، والتي حدّدت أن نور الله غير مخلوق وأن شرط المشاركة في هذا النور هو الهدوئية المقدسة، أي حياة اليقظة الروحية.

يضع قسماً "سينوذيكون الأرثوذكسية" هذان الأسس اللاهوتية والكنسية للعلاج من منظور الكنيسة الأرثوذكسية.

إن المحور المركزي لقرار المجمع المسكوني السابع هو ابن الله وكلمته، الذي بتجسده شفى الطبيعة البشرية كلها، لأن "ما لا يُتَّخَذُ لا يُشْفَى"، بحسب القديس غريغوريوس اللاهوتي. للمسيح الإله-الإنسان طبيعتان متحدتان في أقنومه. إنه يجمع المخلوق مع غير المخلوق، المنظور بغير المنظور، المحصور مع غير المحدود. تنطبق غير المخلوقية على الجوهر الإلهي، وينطبق الخلق على الطبيعة البشرية. وهذا ما نعترف به "بالكلمة والصورة". أي أننا نؤمن ونعلن "الأقوال بالكتابات والأفعال بالصور" والخير يأتي من إعلان الله بالكلمات وتأكيد الحقيقة من خلال الأيقونات.

لذلك فإن سر تجسد الابن وكلمة الله يتأكد بالكلمات اللاهوتية التي علّم بها الآباء الذين عاينوا الله، وبالأيقونات المقدسة التي رسمها رسامو المقدسون. علاوة على ذلك، "بما أن الأيقونات المقدسة تُقدّس عيون من ينظرون إليها، فهي تقود النوس إلى معرفة الله"، تماماً كما يتم في بناء الكنائس المقدسة، والأواني المقدسة وسائر الذخائر المقدسة.

إن الكلمات اللاهوتية والأيقونات المقدسة ترفع النوس إلى معرفة الله. بعبارة أخرى، تشفى الإنسان، كما يؤكد تقليد الكنيسة عبر القرون. لهذا السبب، يشير المجمع المسكوني السابع إلى التقليد المكتوب وغير المكتوب الناشئ عن معانيات الأنبياء وتعليم الرسل والآباء، أي من توافُق الخبرة واللاهوت بين الأنبياء والرسل والآباء. من ثم كان المحور المركزي لقرار المجمع المسكوني التاسع هو تعليم القديس غريغوريوس بالاماس، الذي تخلّص من معتقدات برلعام وأكيندينوس الخاطئة. بحسب هذا القرار، لم يكن النور الذي أشرق في التجلي الإلهي ظهوراً مخلوقاً، ولم يكن جوهر الله، بل كان النعمة والإشراق والقوة غير المخلوقة والطبيعية التي تنبثق "بشكل أبدي وغير منفصل ... من جوهر الله". للمسيح الإنسان-الإله قوتان، إلهية وبشرية، لكن الجوهر الإلهي لا يمكن مشاركته، في حين أن القوة الإلهية قابلة للمشاركة. يتكشّف مجد المسيح "بمحبة الله للبشرية لمن تظهر نوسهم".

يتضح من هذا أن المسيح هو إله حق من إله حق، ولكنه أيضاً إنسان، وبتجسده شفى الطبيعة البشرية التي اتّخذها من والدة الإله الفائقة القداسة. من ذلك الحين، كل الذين نوسهم طاهر يعاينون بنعمة الله مجد الله ويُشفون بطرق مختلفة.

هذه النقاط واردة باختصار شديد في "سينوذيكون الأرثوذكسية" الذي نقرؤه يوم أحد الأرثوذكسية، وهي تشكّل أسس العلاج الأرثوذكسي، الذي يختلف عن أي علاج آخر، سواء كان مسيحياً أو دينياً أو نفسياً.

## ٢. من الكون في الصورة إلى الكون في الشبه

كما سبق ذكره، عندما نتحدث عن العلاج في الكنيسة الأرثوذكسية، فإننا نعني تطور الإنسان من صورة الله إلى شبهه، حيث أن صورة الله هي حقيقة معطاة وشبهه هو تطورها: إنها التألّه والاتحاد بالله. لا يُفسّر كون الإنسان على الصورة والشبه فلسفياً أو اجتماعياً، بل لاهوتياً، إذ نرى الأمر في البشر قبل السقوط، حيث كانوا في نور الله، وكان من المفترض بهم أن يستقروا في هذه الحالة وأن يتطوروا أكثر. لكنهم، بسبب الخطيئة، فقدوا الشبه الإلهي ومجد الله، وأظلمت صورة الله وحُجبت. حسب كلمات الرسول بولس "الجميع

أخطؤوا وأعوزهم مجد الله" (رومية ٣: ٢٣).

أقام ابنُ الله وكلمته بتجسده "الصورة التي سقطت منذ القديم"، وأظهر جمالها الأصلي. هذا استبان بوضوح في تجلي المسيح على جبل طابور. كما نرتل في الكنيسة، أظهر المسيح على جبل طابور الجمال الأصلي للصورة. المسيح "...تجلى أمامهم مظهراً لهم بهاء جمال العنصر الأول" (طروبارية من ليتين الغروب في عيد التجلي). كان هذا إذن هو جمال الصورة في البشر، وكان ينبغي أن يصلوا إليها بالاتحاد بالمسيح. هذا ما نص عليه "سينوذيكون الأرثوذكسية" كما رأينا سابقاً.

بما أن "سينوذيكون الأرثوذكسية" يحيي ذكرى لاهوت القديس غريغوريوس بالاماس، وبما أن الكنيسة ترغب في لفت الانتباه بشكل خاص إلى هذا في يوم أحد الأرثوذكسية، فقد وضعت أيضاً يوم الأحد الثاني من الصوم الكبير، كاستمرار ليوم أحد الأرثوذكسية، لأب الكنيسة العظيم القديس غريغوريوس بالاماس. سأعرض الآن تقدم البشر من صورة الله إلى شبهه، وهو ما يشكل علاجهم بحسب تعليم الكنيسة، كما تم التعبير عنه في كتابات القديس غريغوريوس بالاماس.

تكلم برلغام عن كيفية تقدم الناس من الكون في الصورة إلى الشبه وفقاً للنماذج الأفلاطونية. وعليه، أكد أن المبادئ الداخلية للأسرار الطبيعية موجودة في النوس الإلهي المبدع والأول، في حين أن صور المبادئ الموجودة في ذلك النوس موضوعة في نفوسنا. هذا هو سبب سعينا جاهدين لفهم هذه المبادئ الداخلية وتخليص أنفسنا من كل أنواع الجهل من خلال أساليب التباين والتفكير القياسي والتحليل، وبهذه الطريقة نتوافق مع شبه الخالق، سواء أثناء وجودنا على قيد الحياة أو بعد الموت. هذا ما أكد به برلغام. لكن القديس غريغوريوس بالاماس في دحضه لهذه الطريقة العلاجية الفلسفية الأفلاطونية، كتب أن المعرفة التي تبحث عن صورة الله في الحكمة الدنيوية هي "معرفة زائفة"، لأن الخطيئة شوّهت النفس. بالتحديد، كتب أن الجزء القابل للتجربة من النفس ارتكب الشر وأفسد قوى النفس، وأربك بصيرتها (النوس)، ووضعها بعيداً عن جمالها الأصلي.

هذا يعني أن كل من يريد أن يحصل على الصورة الإلهية السليمة ومعرفة الحقيقة يجب أن ينتبه قبل كل شيء إلى بصيرة النفس والنوس، ويمتنع عن الخطيئة، ويقرأ ناموس الوصايا بممارستها واكتساب كل فضيلة، والعودة إلى الله بالصلاة والتأله الحقيقي. فقط من خلال التطهر يكتسب المرء حكمة الله التي تغلب العالم ويعيش بفرح مع الله الحكيم الوحيد.

وبالتالي، لقد شوّهنا قوى نفسنا من خلال الخطيئة، وأصببت بصيرة نفسنا بالتشوش. لهذا السبب، بالحياة في المسيح بكاملها (حفظ الوصايا والصلاة)، يكتسب المرء الصورة الإلهية سليمة، ويكتسب المعرفة الصحيحة ويصل إلى التأله، بمعنى آخر، إلى أن يكون على شبه الله.

في نص موحى به من الله، عنوانه "إلى الراهبة كسانيا الفائقة الورع"، يصف القديس غريغوريوس بالاماس بمزيد من التفصيل هذا المنهج العلاجي، وهو تطهر الصورة الإلهية في البشر، وتطهر النوس الثاقب البصيرة، والتقدم نحو شبه الله. ويناقش القديس في هذا النص الأهواء والفضائل وثمار هدوئية النوس.

يتكلم في هذا النص عن حياة النفس التي هي اتحادها بالله؛ موت الروح الذي هو الافتراق عن الله؛ الأهواء؛ شفاء النفس ذات الأجزاء الثلاثة؛ وفقر الروح الذي يوحد النوح والعزاء من الله. يحدث هذا عندما ينسحب النوس من كل الأمور المادية، ويراقب إنسانه الداخلي، ويرى "القناع القبيح" الناتج عن التسكع في الخارج. ثم يسعى الإنسان جاهداً لغسله (القناع) بالنوح. بمجرد إزالة هذا "القناع القبيح"، تصلي النفس في بيت الكنز الداخلي، وبعد ذلك يمنح الله سلام الأفكار وكل هدايا الخطبة الروحية وتصبح الروح عروس الله، مطهرة من كل فكرة وخيال، وتقف صماء وبكماء أمام الله. يتلقى الجسد المتحد بالنفس أيضاً رموزاً للجمال الإلهي. يكتسب حالة مستقرة من الفضيلة، فيما لا يبقى للجسد سوى ميل ضئيل أو معدوم للخطيئة. من ثم يفهم الإنسان حقائق تتجاوز الطبيعة ويتلقى العديد من مواهب النعمة من الله، كعقل المعجزات ونفاذ البصيرة وبعده النظر.

ولذلك، فإن لتطويبات المسيح الأولى أهمية كبيرة: "طوبى للفقراء بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات" و"طوبى للحزاني فإنهم يُعزَّون" (متى ٥:٣-٤).

ختاماً لهذه المساهمة القصيرة، أود أن أؤكد في النهاية أن يوم أحد للأرثوذكسية، كما هو مُعبر عنه في "سينوديكون الأرثوذكسية"، يُظهر أن ابن الله وكلمة الله هما صورة الآب غير المنظور (كولوسي ١:١٥). لقد أصبح إنساناً وأظهر لنا مجد الله وخزينا بسبب الخطيئة. ومن خلال حياتنا في الكنيسة، التي هي جسده المجيد، نشفى: من كوننا على صورة الله نصير على شبهه.

هذا هو مضمون العلاج الكنسي واللاهوتي: أن الصورة الإلهية التي فينا تتطهر وتنطلق نحو الشبه الإلهي. وهذا ما يميز العلاج الأرثوذكسي عن أي نوع آخر من العلاج النفسي والديني.

Source: 'Οθεραπευτικός χαρακτήρας της Ορθοδοξίας, Μητροπολίτου Ναυπάκτου καὶ Ἀγίου Βλασίου Ἱεροθέου. (Ομιλία στὴν Διαδικτυακὴ Θεολογικὴ Σύναξη ποὺ διοργάνωσαν τὸ ἱνστιτοῦτο Ἁγιος Μάξιμος Ὁ Γραικὸς καὶ ἡ Πεμπτοῦσία τὴν Κυριακὴ τῆς Ορθοδοξίας 21 Μαρτίου 2021). <https://parembasis.gr/index.php/el/6781-2021-03-21-gr>

